تفسير سورة مريم

الجزء الثالث

التفسير الإجمالي:

بعدَ أن ذكَر الله تعالى جانبًا مِن قصةِ زكريا ويحيى -عليهما السلام- وما فيها مِن العجبِ؛ ذكَر قصةً أخرَى أعجبَ منها، وهي قصةُ مريمَ، وميلادِ ابنِها عيسى عليه السلامُ، فقال تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- في هذا القُرآنِ خَبَرَ مَريمَ إذ تباعَدَت عن أهلِها، فاتَّخَذت لها مَكانًا جهة الشَّرقِ. فجعَلَت بينَها وبينَ أهلِها سِترًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ، لتتفَرَّغَ للعبادةِ، فأرسَلْنا إليها جبريلَ، فتمثَّل لها في صورةِ رجلٍ تامِّ الخَلْقِ، جَميلِ الصُّورةِ. قالت مريمُ له: إنِّي أستجيرُ بالرَّحمنِ منك أن تنالَني بسوءٍ إنْ كُنتَ تتقي اللهَ فستنتهي بتعوُّذي منك. قال لها المَلَكُ: إنَّما أنا رسولُ رَبِّك بعَثَني إليك؛ لأهَبَ لكِ غلامًا طاهرًا من الذُّنوبِ. قالت مريمُ للمَلَك: كيف يكونُ لي غُلامٌ ولم يمسَسْني بشَرٌ بنكاحٍ، ولم أكُن زانيةً؟! قال لها المَلَكُ: هكذا الأمرُ كما تَصِفينَ مِن أنَّه لم يَمسَسْكِ بَشَرٌ، ولم تكوني بَغِيًّا، ولكِنَّ رَبَّك قال: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ عليَّ سَهلٌ؛ ولِيَكونَ هذا الغُلامُ عَلامةً للنَّاسِ تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى، ورحمةً منَّا به وبك وبالنَّاسِ، وكان خلقُه على هذه الحالةِ قَضاءً سابِقًا مُقَدَّرًا.

يُخبِرُ الله تعالى عن مشهدٍ آخرَ مِن مشاهدِ تلك القصةِ العجيبةِ، حينَ حمَلت مريمُ بعيسى عليه السلامُ، وعندما جاءَها المخاضُ، فيقولُ تعالى: فحَمَلت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فتباعَدَت به إلى مَكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ، فألجأها طَلْقُ الحَملِ ووجعُ الولادةِ إلى جِذعِ النَّخلةِ، فقالت: يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا اليومِ، وكنتُ شيئًا لا يُعرَفُ ولا يُذكَرُ! فناداها مولودُها عيسى مِن تحتِها عندما وضَعتْه: أنْ لا تَحزني، قد جعل ربُّكِ تحت قَدَميك جَدْولَ ماءٍ، وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ تُساقِطْ عليك النَّخلةُ رطبًا طريًّا طيِّبًا، فكُلي من الرُّطَب، واشرَبي من الماءِ، وطِيبي نفسًا، ولا تحزني، فإنْ رأيتِ مِن النَّاسِ أحدًا فسَأَلَكِ عن أمْرِك، فقولي له: إني أوجَبْتُ على نفسي لله سُكوتًا، فلن أكَلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ.

يذكرُ الله تعالى ما حدَث عندما جاءَتْ مريمُ بوليدِها إلى قومِها، فيقولُ سبحانه: فأتت مريمُ قَومَها تَحمِلُ مَولودَها، فلمَّا رأَوها كذلك قالوا لها: يا مَريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا! يا أختَ الرَّجُلِ الصَّالحِ هارونَ، ما كان أبوكِ رجُلَ سَوءٍ يرتكِبُ الفواحِشَ، وما كانت أمُّكِ امرأةَ سَوءٍ تأتي الفاحشةَ! فأشارت مَريمُ إلى مَولودِها عيسى ليُكلِّموه، فقالوا مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ طِفلًا رَضيعًا لا يزالُ في مَهدِه؟! فنطَق عيسى قائلًا: إنِّي عبدُ اللهِ، قضى بإعطائي الإنجيلَ وجَعْلِي نبيًّا، وجعَلَني عظيمَ الخَيراتِ وكثيرَ النفعِ للناسِ حيثُما وُجِدْتُ، وأوصاني بالمحافَظةِ على الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ما بَقِيتُ حَيًّا، وجعَلني بارًّا بوالِدتي،

ولم يجعَلْني مُتكَبِّرًا، ولا شَقيًّا عاصيًا لرَبِّي، والتحيةُ والسَّلامةُ والأمانُ عليَّ مِن اللهِ يومَ وُلِدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أُبعَثُ حيًّا يومَ القيامةِ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة مريم:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿34﴾

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) أي: ذلك العَظيمُ القَدرِ، العالي المنزِلة الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى بنُ مَريمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه، قَولَ الحَقِّ، الذي فيه يختلفُ النَّاسُ ويشُكُّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنا، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ أو ثالثُ ثلاثةٍ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ لَفظةَ الْحَقِّ في قَولِه هنا: قَوْلَ الْحَقِّ فيها للعلماء وجهان: الأول: أنَّ المرادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، بمعنى الصِّدقِ والثُّبوتِ، كقَولِه: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ) [الأنعام: 66]. الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالحَقِّ في الآيةِ: اللهُ جلَّ وعلا؛ لأنَّ مِن أسمائِه «الحَقِّ»، كقَولِه: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) [النور: 25]، وقوله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) [الحج: 6]). ((أضواء البيان))

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿35﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا ذَكَر تعالَى أنَّه خَلَقه عبدًا نَبِيًّا، نَزَّه نفسَه المقدَّسةَ، فقالَ

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) أي: ما ينبغي لله أن يَجعلَ له ولَدًا، تنزَّه اللهُ عن الوَلَدِ والنَّقصِ، وعن كلِّ ما لا يليقُ بكَمالِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) [النساء: 171].

وقال سُبحانه: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) [الأنعام: 100].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) [مريم: 92].

(إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أي: إذا أراد اللهُ إحداثَ شَيءٍ فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَصيرُ مَوجودًا كما يشاءُ بلا كُلفةٍ ولا مَشقَّةٍ، كما خلقَ عيسى بنَ مَريمَ بكَلِمةِ (كُنْ)، فصار مخلوقًا بدونِ أبٍ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [آل عمران: 59]. وقال سُبحانه: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [النحل: 40].

وقال عزَّ وجلَّ: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس: 82].

قال ابن عثيمين: دَلالةٌ على أنَّه ليس بينَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكوُّنِه تراخٍ، بل يكونُ على الفوريَّةِ؛ وذلك لقَولِه تعالى: فَيَكُونُ بالفاءِ، والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتَّعقيبِ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿36﴾

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) أي: قال عيسى لِقَومِه وهو في مَهدِه: ولأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحدَه لا شريكَ له. موسوعة التفسير

قال الرازي: يدُلُّ على أنَّ مُدبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم هو اللهُ تعالى، على خِلافِ قَولِ المنَجِّمينَ: إنَّ مُدَبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم في السَّعادةِ والشَّقاوةِ هي الكواكِبُ.

قال السعدي: فيه الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بالأوَّلِ على الثَّاني.

(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أي: هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ اللهِ هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوِجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: والمرادُ بالصِّراطِ المستقيمِ: اعتقادُ الحقِّ، شُبِّهَ بالصِّراطِ المستقيمِ على التَّشبيهِ البليغِ؛ شُبِّهَ الاعتقادُ الحقُّ في كونِه موصلًا إلى الهُدى بالصِّراطِ المستقيمِ في إيصالِه إلى المكانِ المقصودِ باطمئنانِ بالٍ، وعُلِمَ أنَّ غيرَ هذا كبُنَيَّاتِ (هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تتشَعَّبُ مِن الجادَّةِ) الطَّريقِ، مَن سلَكَها ألْقَت به في المخاوفِ والمتالفِ.

قصةُ مريمَ فيها كرامةٌ مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

الأول: أنَّه قيلَ لها: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا وهي امرأةٌ نُفَساءُ، والمرأةُ النُّفَساءُ عادةً تكونُ ضعيفةً، والهَزُّ بجِذعِ النَّخلةِ لا يتأتَّى، بل إنَّه صَعبٌ؛ فإنَّ الرجُلَ القَويَّ إذا هزَّها مِن أسفَلَ لا تهتَزُّ، لكنَّ مَريمَ قيل لها: هُزِّي بجِذعِ النَّخلةِ، فهَزَّت؛ فاهتَزَّت النَّخلةُ، وهذه كرامةٌ. موسوعة التفسير

الثاني: تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، والعادةُ أنَّ الرُّطَبَ إذا تساقَطَ مِن فَوقِ النَّخلةِ، فإنَّه يَفسُدُ ويتفضَّخُ، لكِنَّه في شأنِها بَقِيَ رُطَبًا جَنيًّا، وهذه كرامةٌ! موسوعة التفسير

الثالث: أنَّه ولَمَّا جاءت تحمِلُ الولَدَ فقالوا لها مُعرِّضينَ لها بالزِّنا: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) [مريم: 28]، (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) [مريم: 29] فكلَّمَهم، وهذه كرامةٌ.

فهذه كراماتٌ، وهي في الحقيقةِ تُشبِهُ آياتِ الأنبياءِ، لكِنَّ الفَرقَ بينهما أنَّ آياتِ الأنبياءِ تأتي من النبيِّ، وكرامةَ الأولياءِ تأتي مِن وليٍّ مُتَّبِعٍ للنبيِّ. ابن عثيمين

المعجزة تكون مقرونة بالتحدي وبدعوى النبوة، أما الكرامة فغير مقرونة بالتحدي.

والقول الراجح: أن مريم -عليها السلام- امرأة صالحة من خير نساء العالمين، وهي صديقة وليست نبية؛ فالنبوة خاصة بالرجال، ولم يبعث الله نبيًّا من غيرهم، والدليل: قول الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ {يوسف:109}، ومعلوم أن الاستثناء بعد النفي يدل على الحصر كما قال أهل اللغة، قال الشوكاني -معلقًا على الآية-: وتدل الآية على أن الله لم يبعث نبيًّا من النساء ولا من الجن.

وقد وصف الله -عز وجل- مريم -عليها السلام- بالصديقة، ولم يصفها بالنبية، فقال سبحانه: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ {المائدة:75}، ولو كانت نبية لجاء

وصفها بذلك بعد وصف ابنها -عليه السلام- بأنه رسول؛ فمرتبة النبوة أعظم وأرفع من مرتبة الصديقية. إسلام ويب بتصرف يسير

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿37﴾

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) أي: فاختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زِنا، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللهُ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كبيرًا- وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: أنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه. موسوعة التفسير

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أي: فوَيلٌ للكافرينَ الذين اعتَقَدوا في عيسى مُعتَقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم من الكُفَّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المملوءَ بالشدائدِ والأهوالِ، المشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِن العَذابِ والنَّكالِ.

❁قيل: الويلُ: كلمةٌ تعني الهلاكَ والعذابَ والشِّدَّة. وقيل: وادٍ في جهنَّمَ. الدرر السنية

كما قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) [الزخرف: 63 - 65].

تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لِمَن كَذَب على اللهِ وافترى، وزعَم أنَّ له وَلدًا، ولكِنْ أنظَرَهم تعالى إلى يومِ القيامةِ وأجَّلَهم؛ حِلمًا وثِقةً بقُدرتِه عليهم؛ فإنَّه الذي لا يَعجَلُ على مَن عصاه، كما جاء في الصَّحيحينِ:(إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذه لم يُفلِتْه. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ ﷺ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: 102] (متفق عليه). وفي الصَّحيحَينِ أيضًا عن رسولِ اللهِ ﷺأنَّه قال:(ما أحدٌ أصبرَ على أذًى سَمِعه مِنَ اللهِ؛ يَدَّعونَ له الولدَ، ثمَّ يُعافيهم ويرزُقُهم!).وما أشار اللهُ إليه مِن أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعذابِ، وأنَّه يُؤخِّرُ عذابَهم إلى الوَقتِ المحدَّدِ لذلك؛ أشار له في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) [إبراهيم: 42]، وقولِه تعالى: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ) [هود: 104].الدرر السنية

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾﴿38﴾

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) أي: ما أسمَعَ الكافرينَ، وما أبصَرَهم للحَقِّ الذي كانوا يُنكِرونَه، يومَ قُدومِهم علينا يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) [السجدة: 12].

(لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي: لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ: هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضحٍ عن الحَقِّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه. موسوعة التفسير

❁الظالم لايرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته فمن حبس نفسه في غرفة مظلمة فكيف يتسلل النور إليه!! / مها العنزي

✉وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)، وعكَسَ في (الكهفِ) فقال: (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) [الكهف: 26]؛ لأنَّ معناه هنا: أنَّه تعالى ذَكَرَ قصصَ الأنبياءِ، فاسْمَعْها وتدبَّرْها، واستعمِلِ النَّظرَ فيها ببصيرتِك، ومعناه في (الكهفِ): أنَّه تعالى له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ، فاجعَلْ بصيرتَك في الفكرِ في مَخلوقاتِه، وتدبَّرْها بحيثُ تصِلُ إلى معرفتِه، واسمَعْ لصفاتِه ووحِّدْهُ، فناسَبَ تَقديمُ السَّمعِ هنا، والبصرِ ثَمَّ. الدرر السنية

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾﴿39﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّه عقَّب تَحذيرَهم من عذابِ الآخرةِ، والنِّداءَ على سُوءِ ضَلالِهم في الدُّنيا، بالأمرِ بإنذارِهم؛ استِقصاءً في الإعذارِ لهم. موسوعة التفسير

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) أي: وخوِّفِ النَّاسَ يومَ القيامةِ -يا مُحَمَّدُ- يومَ يَندَمُ الظَّالِمونَ على تَفريطِهم في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وعلى ما فاتهم مِن الثَّوابِ، وعلى ما يُصيبُهم مِن العذابِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) [البقرة: 166- 167].

وقال سُبحانه: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) [الزمر: 56].

❁الباب عندما لايزال مفتوحا بإمكانك دخوله في أي وقت لكن سيأتي وقت فيغلق تماما وما من أحد سيفتحه لك/ مها العنزي

❁حين تُغلق صحف العمل، ويبدأ الحساب، تتحسر النفوس! / وليد العاصمي

قال ابن عاشور: أُضيفَ اليومُ إلى الحسرةِ؛ لكثرةِ ما يحدُثُ فيه من تحسُّرِ المجرِمين على ما فرَّطوا فيه من أسبابِ النَّجاةِ؛ فكان ذلك اليومُ كأنَّه ممَّا اختَصَّتْ به الحسرةُ، فهو يومُ حَسرةٍ بالنِّسبةِ إليهم، وإنْ كان يومَ فرحٍ بالنِّسبةِ إلى الصَّالحينَ.

قال البيضاوي: يتحسَّرُ المسِيءُ على إساءتِه، والمحسِنُ على قِلّةِ إحسانِه.

قال ابن حيان: اللَّامُ في يَوْمَ الْحَسْرَةِ للجنسِ؛ لأنَّ هذه حسراتٌ كثيرةٌ في مواطنَ عدَّةٍ، ومنها يومُ الموتِ، ومنها وقتُ أخْذِ الكتابِ بالشِّمالِ، وغيرُ ذلك.

(**إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ**) أي: حينَ فُرِغَ مِن الحسابِ والحُكمِ بينَ العبادِ، فيَدخُلُ المؤمِنونَ الجنَّةَ، ويَدخُلُ الكافِرونَ النَّارَ، ويُذبَحُ الموتُ بين الفَريقَينِ. موسوعة التفسير

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَشرَئبُّونَ (يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي) ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشرَئبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، فيُذبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ، ثمَّ قرأ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، وهؤلاء في غَفلةِ أهلِ الدُّنيا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) (رواه البخاري).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ، أُتيَ بالموتِ حتى يُجعَلَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم)). (رواه مسلم).

قال ابنُ القيِّم: (هذا الكَبشُ والإضجاعُ والذَّبحُ ومُعاينةُ الفَريقَينِ: ذلك حقيقةٌ لا خيالٌ ولا تمثيلٌ).

(**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**) أي: والحالُ أنَّ الكافرينَ في الدُّنيا في غَفلةٍ وذُهولٍ عَمَّا أُنذِروا به، وعمَّا ينتَظِرُهم مِن العذابِ يومَ القيامةِ، فهم مُنشَغِلونَ بدُنياهم، مُعرِضونَ عَمَّا يُرادُ منهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) [الأنبياء: 1 – 3].

وقال سُبحانَه: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) [الأنبياء: 97].

وقال عزَّ وجلَّ: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق: 22].

(وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) أي: وهم في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ باللهِ، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ عاشور: (ومعنى وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ: استِمرارُ عَدَمِ إيمانِهِم إلى حُلولِ قَضاءِ الأمرِ يومَ الحَسرةِ).

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال السعدي: والإنذارُ هو الإعلامُ بالمخُوفِ على وَجهِ التَّرهيبِ، والإخبارُ بصِفاتِه، وأحقُّ ما يُنذَرُ به ويُخَوَّفُ به العِبادُ يومَ الحَسرةِ حينَ يُقضى الأمرُ، فيُجمَعُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في مَوقِفٍ واحدٍ، ويُسأَلونَ عن أعمالِهِم، فمَن آمنَ باللهِ واتَّبَع رُسُلَه؛ سَعِدَ سَعادةً لا يشقى بعدَها، ومَن لم يؤمِنْ باللهِ ويتَّبِعْ رُسُلَه؛ شَقِيَ شَقاوةً لا سعادةَ بَعدَها، وخَسِرَ نَفسَه وأهلَه، فحينئذٍ يتحَسَّرُ ويندَمُ ندامةً تتقَطَّعُ منها القُلوبُ، وتنصَدِعُ منها الأفئدةُ، وأيُّ حسرةٍ أعظمُ مِن فواتِ رضا الله وجنَّتِه، واستحقاقِ سخطِه والنارِ، على وجهٍ لا يتمكَّنُ مِن الرُّجوعِ؛ ليَستأنفَ العملَ، ولا سبيلَ له إلى تغييرِ حالِه بالعودِ إلى الدُّنيا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿40﴾

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) أي: قال اللهُ تعالى: إنِّي أرِثُ وَحدي الأرضَ وكُلَّ ما عليها بعدَ مَوتِ الخلائِقِ، ولا يَملِكُها أحدٌ سواي. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: وفي قولِه: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ تأكيدٌ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لدفْعِ الشَّكِّ؛ لأنَّ المشرِكين يُنكِرون الجزاءَ، فهم يُنكِرون أنَّ اللهَ يرِثُ الأرضَ ومَن عليها بهذا المعنى، وكذلك ضميرُ الفصلِ نَحْنُ يُفيدُ التَّأكيدَ.

❁" أتيت إلى الدنيا وبيدك شهادة وفاتك ... ففيم طول الأمل؟ / علي الفيفي

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: لا يَحزُنْك تكذيبُ هؤلاء المشرِكينَ لك -يا مُحمَّدُ- فيما أتيتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم ومصيرَ جَميعِ الخَلقِ غَيرِهم، ونحن وارِثو الأرضِ ومَن عليها من النَّاسِ، بفَنائِهم منها، وبقائِها لا مالِكَ لها غيرُنا).

كما قال تعالى: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) [الحجر: 23].

وقال سُبحانَه: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر: 16].

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) أي: وإلينا لا إلى غَيرِنا يُرَدُّ العِبادُ يومَ القيامةِ فيُبعَثونَ، وبأعمالِهم يُجازَونَ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: تذييلٌ لخَتْمِ القصَّةِ على عادةِ القُرآنِ في تَذييلِ الأغراضِ عندَ الانتقالِ منها إلى غيرِها، وأفاد هذا التَّذييلُ التَّعريفَ بتَهديدِ المشرِكين، بأنَّهم لا مفَرَّ لهم من الكونِ في قبْضةِ الرَّبِّ الواحدِ الَّذي أشْرَكوا بعبادتِه بعضَ ما على الأرضِ، وأنَّ آلهَتَهم ليست بمَرجُوَّةٍ لنفْعِهم؛ إذ ما هي إلَّا ممَّا يرِثُه اللهُ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿41﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا بيَّن تعالى ضَلالَ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ حَيًّا عاقِلًا فاهِمًا، وهم النَّصارى؛ تكلَّمَ في ضَلالِ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ جمادًا، وهم عَبَدةُ الأوثانِ؛ قال ابن حيان: فذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- مع أبيه؛ تذكيرًا للعَربِ بما كان إبراهيمُ عليه مِن توحيدِ الله، وتبيينِ أنَّهم سالِكو غيرِ طَريقِه، فقال:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ) أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القرآنِ خبَرَ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، على قَومِك الذين هم مِن ذريَّتِه، ويدَّعون كَذِبًا أنَّهم على مِلَّتِه، ويتمَسَّكونَ بتَقليدِ آبائِهم، فهم يَعبُدونَ الأصنامَ والحالُ أنَّ أعظَمَ آبائِهم -إبراهيمَ- كان حنيفًا مُسلِمًا ينهَى أباه عن الشِّركِ، وعبادةِ الأصنامِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [الشعراء: 69]

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) أي: إنَّ إبراهيمَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِه وأعمالِه ومواعيدِه، بليغَ التَّصديقِ بكُلِّ ما هو أهلٌ لأن يُصَدَّقَ به، وكان نبيًّا رفيعَ القَدرِ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (الصِّدِّيقُ صِيغةُ مبالغةٍ مِن الصِّدقِ؛ لشِدَّةِ صِدقِ إبراهيمَ في معاملتِه مع رَبِّه، وصِدقِ لهجتِه، كما شَهِدَ اللهُ له بصِدقِ معاملتِه في قَولِه: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) [النجم: 37]، وقَولِه: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [البقرة: 124]، ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: رِضاه بأن يَذبَحَ ولَدَه، وشُروعُه بالفِعلِ في ذلك؛ طاعةً لرَبِّه... ومِن صِدقِه في معاملتِه مع ربِّه: صبرُه على الإلقاءِ في النَّارِ... ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: صبرُه على مفارقةِ الأهلِ والوطنِ؛ فرارًا بدينِه). ((أضواء البيان))

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿42﴾

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ) أي: اذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- إبراهيمَ حين قال لأبيه: يا أبتِ، لِماذا تعبُدُ أصنامًا لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ شَيئًا؟! موسوعة التفسير

(وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) أي: ولا تدفَعُ الأصنامُ عنك -يا أبتِ- أيَّ ضَرَرٍ، ولا تنفَعُك بأيِّ شَيءٍ، فلِمَ تَعبُدُها. موسوعة التفسير

قال الله تعالى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) عاب الوَثَنَ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحَدُها: لا يسمَعُ، وثانيها: لا يُبصِرُ. وثالثها: لا يغني عنك شيئًا، كأنه قال له: بل الإلهيَّةُ ليست إلَّا لربي؛ فإنَّه يسمَعُ ويُجيبُ دَعوةَ الداعي ويُبصِرُ، كما قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه: 46]، ويقضي الحوائِجَ: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) (55) [النمل: 62]. فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ مَنْ لا يتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ لا يصلحُ أنْ يكونَ ربًّا ولا إلهًا. الدرر السنية

قال الرازي: أنَّ العبادةَ غايةُ التعظيمِ؛ فلا يَستَحِقُّها إلَّا مَن له غايةُ الإنعامِ، وهو الإلهُ الذي منه أصولُ النِّعَمِ وفُروعُها؛ قال تعالى: (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) [مريم: 36].

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿43﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال أبو حيان: لما سألَه عن العلَّةِ في عبادةِ الصنمِ، ولا يمكنُ أن يجِدَ جوابًا؛ انتقَل معه إلى إخبارِه بأنَّه قد جاءَه مِن العلمِ ما لم يأتِه.

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا نبَّهَه على أنَّ ما يَعبُدُه لا يَستَحِقُّ العبادةَ، بل لا تجوزُ عبادتُه؛ لِنَقصِه مُطلَقًا، ثمَّ نَقصِه عن عابِدِه، ولن يكونَ المعبودُ دونَ العابدِ أصلًا، وكان أقَلُّ ما يَصِلُ إليه بذلك مقامَ الحَيرةِ- نبَّهَه على أنَّه أهلٌ للهِدايةِ، فقال

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) أي: يا أبتِ، إنِّي قد أُعطيتُ مِن العِلمِ بالحَقِّ ما لم تُعْطَه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) [الأنبياء: 51].

(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) أي: فاقبَلْ نَصيحتي، واعبُدِ اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكْ به شيئًا؛ أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلًا إلى نيلِ المطلوبِ، والنَّجاةِ مِن المرهوبِ. موسوعة التفسير

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ﴿44﴾

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) أي: يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ، فتكونَ عابدًا له. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) [يس: 60، 61].

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) أي: لأنَّ الشَّيطانَ عاصٍ للرَّحمنِ، مُستكبِرٌ عن طاعتِه، فلا تتَّبِعْه فتكونَ عاصيًا لله مِثلَه. موسوعة التفسير

قال السعدي: في ذِكرِ إضافةِ العِصيانِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إشارةٌ إلى أنَّ المعاصيَ تمنَعُ العبدَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتُغلِقُ عليه أبوابَها، كما أنَّ الطاعةَ أكبَرُ الأسبابِ لِنَيلِ رَحمتِه.

تعليلٌ لموجِبِ النَّهيِ، فهو تَعليلٌ للنَّهيِ عن عبادتِه وعبادةِ آثارِ وَسوستِه بأنَّه شديدُ العصيانِ للرَّبِّ واسعِ الرَّحمةِ. وتأكيدٌ له ببَيانِ أنَّه مُستعصٍ على ربِّك الَّذي أنعَمَ عليك بفُنونِ النِّعمِ، ولا ريبَ أنَّ المطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأنْ يَسترِدَّ منه النِّعمَ، وينتقِمَ منه.الدرر السنية

قال ابن عاشور: وذِكْرُ وصْفِ عَصِيًّا الَّذي هو من صِيَغِ المبالغةِ في العصيانِ، مع زيادةِ فعْلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يُفارِقُ عِصيانَ ربِّه، وأنَّه مُتمكِّنٌ منه، فلا جرَمَ أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما يُنافي الرَّحمةَ، أي: بما يُفْضي إلى النِّقمةِ، ولذلك اخْتِيرَ وصْفُ الرَّحمنِ من بينِ صفاتِ اللهِ تعالى؛ تَنبيهًا على أنَّ عِبادةَ الأصنامِ تُوجِبُ غضَبَ اللهِ، فتُفْضي إلى الحرمانِ من رَحمتِه، فمَن كان هذا حالَهُ فهو جديرٌ بألَّا يُتَّبَعَ.

الشَّيطانَ الَّذي استعصى على ربِّك الرَّحمنِ، الَّذي جميعُ ما عندَك مِن النِّعمِ مِن عندِه، وهو عدُوُّك الَّذي لا يُريدُ بك إلَّا كلَّ هلاكٍ وخزْيٍ ونكالٍ، هو الَّذي ورَّطَك في هذه الضَّلالةِ، وزيَّنَها لك كيف تطيعه؟

قال ابن رجب: سمَّى اللهُ تعالى طاعةَ الشَّيطانِ في معصيتِه عِبادةً للشَّيطانِ، كما قال تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) [يس: 60]، وقال حاكيًا عن خليلِه إبراهيمَ أنَّه قال لأبيه: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)، فمن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا مَن أخلَصَ عبوديَّةَ الرَّحمنِ، وهم الذين قال اللهُ فيهم: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) [الحجر: 42]؛ فهم الذين حَقَّقوا قولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»

وأخلصوا في قَولِها، وصَدَّقوا قَولَهم بفِعلِهم، فلم يلتَفِتوا إلى غَيرِ الله؛ محبَّةً ورجاءً، وخشيةً وطاعةً وتوكُّلًا، وهم الذين صَدَقوا في قَولِ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وهم عبادُ الله حقًّا، فأمَّا مَن قال: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» بلِسانِه، ثمَّ أطاع الشَّيطانَ وهواه في مَعصيةِ الله ومخالفتِه؛ فقد كَذَّب فِعلُه قَولَه، ونَقَص مِن كَمالِ توحيدِه بقَدرِ مَعصيةِ اللهِ في طاعةِ الشَّيطانِ والهوى. (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) [القصص: 50] (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (39) [ص: 26]. ((مجموع رسائل ابن رجب)) (58/3).

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿45﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: لما قرَّر له أنَّ عبادتَه الأصنامَ اتِّباعٌ لأمرِ الشَّيطانِ؛ انْتَقَل إلى تَوَقُّعِ حرمانِه مِنْ رحمةِ اللَّهِ بأنْ يَحِلَّ به عذابٌ مِنَ اللَّهِ، فحَذَّره مِنْ عاقبةِ أنْ يصيرَ مِن أولياءِ الشَّيطانِ.

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) أي: يا أبتِ إنِّي أخافُ -إن أقمْتَ على الشِّركِ، وأصرَرْتَ عليه- أن يُصيبَك عذابٌ واقِعٌ مِن الرَّحمنِ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: التَّعبيرُ بالخوفِ الدَّالِّ على الظَّنِّ دونَ القطعِ: تأدُّبٌ مع اللهِ تعالى بألَّا يُثْبِتَ أمرًا فيما هو مِن تصرُّفِ اللهِ، وإبقاءٌ للرَّجاءِ في نفْسِ أبيه؛ لينظُرَ في التَّخلُّصِ من ذلك العذابِ بالإقلاعِ عن عبادةِ الأوثانِ.

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أي: فتكونَ من أولياءِ الشَّيطانِ، ومُقارِنًا له في النِّيرانِ، ويتبرَّأَ منك الرَّحمنُ، فلا تكونَ لك نصرةٌ أبدًا. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: كلُّ مَن كان الشَّيطانُ يُزَيِّنُ له الكُفرَ والمعاصيَ فيَتَّبِعُه في ذلك في الدنيا، فلا وليَّ له في الآخرةِ إلَّا الشَّيطانُ.

كما قال تعالى: (فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأعراف: 30].

وقال سُبحانه: (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النحل: 63].

ابتدأ خطابَه بذِكْرِ أُبُوَّتِه الدَّالَّةِ على توقيرِه، ولم يُسَمِّه باسمِه، ثم أخرجَ الكلامَ معه مَخْرَجَ السُّؤالِ، فقال: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) ولم يقُلْ: «لا تعبُدْ»، ثمَّ قال: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) فلم يقُلْ له: «جاهلٌ لا عِلْمَ عندك!»، بل عَدَل عن هذه

العبارةِ إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى، فقال: (جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)، فأتَى بصيغةٍ تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصَل إليَّ لم يصلْ إليك، ولم يأتِك، فينبغي لك أن تتبعَ الحجةَ، وتنقادَ لها، ثم قال: فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، وهذا مِثْلُ قولِ موسى لفرعونَ: وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ [النازعات: 19]، ثمَّ قال: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) فنسَبَ الخوفَ إلى نفْسِه دون أبيه، كما يَفعَلُ الشفيقُ الخائفُ على مَن يُشْفِقُ عليه، وقال: يَمَسَّكَ فذكَر لفظَ المسِّ الذي هو ألطفُ مِن غيره، ثم نَكَّرَ العذابَ، ثمَّ ذَكَرَ الرحمنَ، ولم يقلِ: «الجبارُ» ولا «القهارُ»، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ مِن هذا. ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (133/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 494).

أن يكون الحق بجانبك لايبرر أن تتهجم بألفاظك حافظ على طيب منطقك لتكون مؤثرا. مها العنزي